وقتهم من تبر

فهل وقتنا من تراب ؟

بقلم الأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف

تكاليف الحياة ، فى الوقت الحاضر ، كثيرة ، ومطالبها متعددة ؛ وحقوقها وواجباتها تنمو وتتجدد على مر الأيام وكر الأعوام ، وهى طافحة بالضروريات والكماليات ، مليئة بشتى وسائل الرقى والتقدم ، وقد كثرت النظم والقوانين كثرة اقتضتها هذه المدنية الحديثة بسبب ما تفيض به من المنافسات ، والحوادث ، والحروب ، وتنازع البقاء ، وما إلى ذلك من ملابسات الحياة فى العصر الذى نعيش فيه .

والعمر قصير ، وإن طال ، والحياة فسيحة المدى ، بعيدة الأمد ، والمرء بينهما لقى معذب فأيامه محدودة ، وساعاته معدودة ، ولكن آماله ، وحاجاته وواجباته لا تكاد تنقضى أو تنتهى إلى حد . وهو فى كل ذلك لامناص له أن يماشى الزمن فى تجدده ونهضته ، وسيره وسرعته ، فاضطر أن يخصص شطرا كبيرا من عمره للتكوين والتهذيب ، والثقافة والتعليم ليكون قوى الجسم كبير العقل ، عظيم الخلق ، كيما يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة وهو مسلح بأقوى سلاح . واضطر كذلك ، بحكم طبيعته ، أن يحدد الشطر الآخر من عمره للنزول فى ميدان الكفاح الحيوى من أجل كسب العيش ، وجلب الثروة لنفسه وذريته ووطنه ، ثم لاتلبث الشيخوخة أن تسرى فى جسمه سريان السم فى الدم ، فتضعف قوته ، وتنهك صحته ، وما هى الا عشية أو ضحاها حتى تجعله أثرا بعد عين .

كل أولئك ينطق بأن الوقت نفيس ، وأن قيمته عظيمة ، لأن العمر قصير مقسم ، والمطالب كثيرة عسيرة لا تنال إلا بمداومة الكد والكدح والحرص على كل لحظة من لحظات الزمن الذى إن ضاع سدى فلن يعود أبدا ، وإن مر بلا عمل جر الخيبة والفشل .

والوقت للعمل كالأرض للزرع ، إن حافظ الزارع على أرضه فأصلحها وفلحها وشقها ورواها ، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . وإن أهملها وأعرض عنها وتركها هامدة خبثت منظرا وساءت مخبرا وأخرجت له الشوك والقتاد والهشيم والحطام . كذلك

الوقت إن حرص عليه الانسان وعمل فيه بصبر وثبات ونشاط وحزم ، استفاد منه وأفاد . و إن بذر فيـه ، واستهان به ولم يقم له وزنا ، كشر له عن نابه ، ثم رشقه بسهامه ورماه بنبـاله ، واستعصى أن يعود أو أن يقف بين يديه فلا هو منه قـد انتفع ولا هو عن أذاه قد ابتعد .

فما أشبهه بالكهرباء إن أحسن المرء استخدامها جاءت اليـه طائعة مستسلمة فاستغلها فى قضاء مصالحه وتحصيل مآربه ، و إن جهلهـا فأساء استعمالها تحولت إلى صاعقـة قاتلة أو شهب فاتكة .

والأمم الراقية قد أدركت هذا جميعه ، وعرفت قيمـة الوقت ، فحرصت عليـه حرص البخيل على درهمه ، وانتفعت بكل فترة من فتراته ، وكل لحظة من لحظاته ، فأفرادها فى شغل دائم ، وعمل متواصل ، بعزمات صادقة و إرادات لا تهن ولا تفتر . حتى اتسم هذا التطور الحديث بالسرعة الخاطفة ، والدقة الحـازمة . وولى عصر الإبطاء والتكاسل ، وحل مكانه عصر المخترعات والمبتكرات التى توفر الزمن ، وتجعل البعيـد أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، ليتوافر لديه مجهوده فينفقه فيما يعود عليه بالربح الجزيل فى الوقت القليل .

وكان من نتائج هذا أن نعمت المجتمعات الراقية بأوقات عملها وفراغها فزاد انتاجهـا المـادى فى الصناعة والتجارة والزراعة ، وتضاعف محصولها الادبى فى الثقافة والعلم والأدب والصحافة والتأليف . وشعرت شعورا حقيقيا بما فى الحياة من نعمة ومتاع ومباهج ، فأخذت منهـا بقسط وافر وجالت فى ميادينها الفنية والعلمية والرياضية-والاجتماعية والخلقية توصلا إلى الكمال الإنسانى المنشود .

وأقوى الأمم وأرقاها ، فى كل عصر ، من نشط أفرادها فى ميادين الكفاح فكانوا جنودا مجندة فى تكوينها و إنشائها وتقويمها و إصلاح شئونها العمرانية والاقتصادية ، وقاموا بأكبر نصيب من الانتاج فى أقرب زمن ، واقترصوا الفرص فلم يضيعوها ، وقبضوا على ناصية الأيام فلم يغفلوها ، واستغلوا أوقاتهـم فيما يعود بالخير والبركة ، وقدروا العمر حق قدره ، فأدوا الواجبات فى أوقاتها ، ودبروا الأوقات لواجباتها ، وساروا على نظام محكم فى عملهـم وراحتهم ، وفى كدهم وفراغهم وسـائر مرافق حيـاتهم . كما هو الواقع فى كثير من بلاد أمريكا وأوربا .

ونحن ، المصريين ، قـد أغوانا العيش السهل فى البلد السهل ، فقل استعدادنا للحياة القاسية ، وأصبحنا نستطيب الراحة والدعة ، ونستمرئ الخمول والسكون ، ونستهين بالوقت أن يمر ، وبالزمن أن يكر .

فالمقاهى بالقطر المصرى قد انتشرت فى المدن ، وامتدت إلى القرى ، وتهافت عليها روادها تهافت الفراش على النار ، يجلسون فيها ماطاب لهم الجلوس ، وينصرفون عنها ماطاب لهم الانصراف . كأنهم خلقوا لايعملوا ، ولكن ليستريحوا ويكسلوا ، وكأن الدنيا لم تفرض عليهم شيئا من واجباتها ومسئولياتها ، وكأن الوقت لديهم من تراب لاوزن له ولا اعتبار ولا قيمة ، وكأنهم فى غفلة ساهون : يقضون الساعات الطويلة فى الغث والتافه ، ويقتلون أوقاتهم فى لعب الميسر وفى غيره من المسليات المحرمة التى لاتفيد جسومهم ولاتشحذ ذهونهم بل تعود عليهم بالضرر الجسمى والعقلى والخلقى ، إذ تجعلهم يألفون السحت الحرام ومواصلة السهر والادمان عليه ، فيعجزون عن مزاولة أعمالهم ومباشرة واجباتهم .

ومنا من يرتادون الحانات فلا يغادرونها إلا وقد ذهب عقلهم ، ووهن عظمهم ، وطار لبهم ، وضاع وقتهم : "أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا وهم فى الآخرة هم الأخسرون" . ونرى فى كثير من القرى طائفة من الشبان قد تعودوا إهمال مزارعهم ، والتسويف فى واجبهم ، واستكانوا إلى الجلوس طويلا : يتحادثون لا فى الشؤون الزراعية ولكن فيما يثير الأحقاد ، ويشعل نيران الفتن والبغضاء ، ويتعاونون على الاثم والعدوان ومعصية الدين والقانون ، وعاقبة ذلك التأخر والدمار ، وقد تكون بزج هؤلاء المعتدين فى السجون ، فيمضون فى غياهبها سنين لايذوقون فيها سوى العذاب الأليم جزاء وفاقا . وفى هذا إضاعة لأوقاتهم وحياتهم .

ومن الناس من يسرف فى وقته ويضيعه فى تحقيق شهواته الجامحة ، ورغباته السيئة فتنفد ثروته ، وتضعف صحته ، ويسرع إليه أجله ، ويتميز من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وهذا جزاء من لايعرف للحياة قيمتها ولا يحسب للمستقبل حسابه .

ومن المصريين من يتسكعون فى الطرقات ، ويجولون فى الأزقة والحارات ، ويعكفون على العبث بالنظام ، والاخلال بالأمن ، ومعاكسة المارة والإضرار بهم . وتتألف منهم جيوش متعطلة إذ لا عمل لهم ولا صنعة ولا حرفة إلا التعدى على حرمة القوانين الوضعية والشرعية والخلقية . وهم قد فسدت ضمائرهم وساء خيالهم وتصورهم ، فليس لهم هدف يرمون إليه ، ولاغرض يتجهون نحوه إلا إضاعة الوقت فيما يؤذيهم ويؤذى المجتمع الذى فيه يعيشون ، وإليه ينتسبون . ومن الطلاب من يبدأون حياتهم المدرسية باللعب والتراخى ، وينظرون إلى واجباتهم نظرة تنم عن الاستخفاف والاستهتار .

وإذا وقعت أبصارهم على الكتب المقررة غضوا الطرف دونها وألقوها جانبا بسخط وتبرم وانصراف تام عنها ، فلا رغبة تحفزهم ، ولا رهبة تدفعهم إلى مطالعتها واستذكارها . ولا تزال هذه حالهم على كر الشهور حتى تتضخم المذكرات ، وتتراكم الدروس وهم عنها فى شغل شاغل . وكلما مرت الأيام ازدادوا تسويفا وتأخيرا ، وجهلا بها ، وكرها لها . حتى إذا ما قرب موعد امتحانهم فطنوا إلى عدم تأهبهم ، ورأوا المصير السيئ الذى ينتظرهم ، فيحاولون عبثا أن يستوعبوا ما فى الكتب ، وأن يحصلوا ما فى المذكرات ويستذكروا المواد لا بالتفكير والتأمل والبحث ، لأن الوقت لا يتسع لهذا ، ولكن بالحفظ الآلى الذى يقتل المواهب ويفسد الملكات . فيدخلون الامتحان وأبصارهم خاشعة ، وقلوبهم واجفة . وأفئدتهم هواء .

عندئذ يجدون أن التسويف قد أضرهم ، وأن النجاح عزيز المنال ، وأن عدم الحرص على الوقت قد أحبط أعمالهم وأضاع آمالهم .

ولو شئت ضرب الأمثال المأخوذة من حياتنا الاجتماعية ما اتسع لها الوقت ، ولضاق دونها المقام : فالصانع والعامل والتاجر وغيرهم ممن يكونون جسم المجتمع المصرى يعوزهم أن يعرفوا أن الوقت من ذهب ، وأن الفرص الطيبة التى تمر لا تعود ، وأنه من الضرورى للنجاح فى هذه الحياة أن يدبر المرء زمنه تدبيرا حكيما ، وأن ينظم عمله تنظيما يعينه على الاتقان والسرعة .

والعاقل من اتعظ بقول الشاعر :

إذا مرّ بى يوم ولم أصطنع يدا ولم أكتسب علما فما ذاك من عمرى

محمد أبو بكر ابراهيم

— الوقت آلة الرزق إذا استعمل ، وآفة الرزق إذا أهمل .

— المقعد خير من القاعد ، والكسيح خير من الكسلان .

شوقى